مدينة مليانة خلال العصر الوسيط:
دراسة تاريخية من خلال كتب الجغرافيا والرحلة

خديجة بورملة
جامعة معسكر، bouramlakhadidja@yahoo.fr

الملخص:

تعد المعلومات التي أفردتها كتب الجغرافيا والرحلة لبلاد المغرب الأوسط عموما ولمدينة مليانة على وجه الخصوص ذات فائدة كبيرة حيث نجد بها نصوصا مطولة عن الجوانب العمرانية والطبيعية والجغرافية نستطيع من خلالها إبراز التطور الذي عرفته هذه المدينة خلال العصر الوسيط، باعتبارها تحتوي على مادة تاريخية تمس بصفة مباشرة الحياة العامة للسكان ونمط معيشتهم.

من بين الأوصاف التي أعطتها كتب الجغرافيا لمدينة مليانة نذكر ما أورده ابن حوقل في كتابه صورة الأرض، وما جاء في كتابات البكري عن مؤسس هذه المدينة ومجددها خلال العصر الوسيط، والمعلومات القيمة في كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول، كما ورد ذكرها في العديد من نصوص المعاجم الجغرافية، مثلما كتبه ياقوت الحموي في قاموسه معجم البلدان، وما جمعه الحميري في معجمه الروض المعطار في خبر الأقطار.

من جهة أخرى تحدثت العديد من كتب الرحلة عن مدينة مليانة التي غالبا ما تقع على طريق رحلة الحجيج المار بالمغرب الأوسط، حيث يرد ذكر هذه المدينة في الرحلة المغربية للعبدري، والتي توضح ولو بطريقة غير مباشرة الموقع الهام الذي تحتله هذه المدينة في طريق الحاج المغربي، وما تقدمه من أوصاف لها باعتبارها إحدى محطات هذا الطريق.

الكلمات المفتاحية: وصف؛ الجغرافيا؛ الرحلة؛ مليانة؛ المغرب الأوسط.

Abstract:

The Object of geographers and travelers is the description of towns and the analysis of the economic and social methods of life through theirs writings. They have presented portraits from general life of the Central Maghreb and particularly the town of Melliana offering rich information of this town.

« The town of Melliana in the books of Arabic geography and travel » is a very important topic because these authors collected different texts that touch directly the general life of inhabitant of Melliana .

according to these texts, we find that Melliana ,during the middle age, is among the important towns of Central Maghreb, and this town is very rich naturally and economically as it contains various agricultural harvests and produce industrials.

Keywords: description; geography; traveling; Melliana; Maghreb Central.

تشير العديد من الدراسات إلى الأهمية الكبيرة التي تكتسيها كتب الجغرافيا والرحلة في التعرف على مظاهر الحضارة الإسلامية خلال العصر الوسيط، حيث اهتم الجغرافيون بوصف البلدان التي زاروها أو جمعوا معلومات عنها، ومن بينها بلاد المغرب التي حظيت مدنها بنصوص مطولة عن تحديد مواضعها ومظاهرها التضاريسية والإنتاج النباتي والحيواني والمعدني، وكذا النشاطات المختلفة للسكان، وعلى الرغم مما تحويه هذه المصادر من معلومات قيمة، إلا أن مجمل الأبحاث الحديثة لا تزال تستخدمها كمصادر ثانوية تستفيد منها أثناء التعريف بمنطقة أو مدينة معينة، في حين يجب استغلال مثل هذا النوع من المادة التاريخية في دراسة تاريخ المغرب عموما، وتاريخ المغرب الأوسط والمدن التابعة له على وجه الخصوص.

وموضوع "مدينة مليانة خلال العصر الوسيط" يدخل ضمن هذا الإطار، أي دراسة لأهم جوانب الحياة بمدينة مليانة من خلال نصوص مصدرية معينة تتمثل في كتب الجغرافيا والرحلة، ومن هنا فإن الاعتماد على هذه النصوص لرسم صورة المدينة إبان الفترة الوسيطية يعد موضوعا في غاية الأهمية، فهذا النوع من المصادر–

بخلاف المصادر الإخبارية التي تؤرخ مباشرة للدول والحكام– تحتوي على مادة تاريخية تمس بصفة مباشرة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان.

يطرح مثل هذا الموضوع العديد من الإشكاليات عن الأوصاف التي قدمتها كتب الجغرافيا والرحلة لمدينة مليانة ؟ وعن حظ هذه المدينة في التأليف الجغرافي؟ وإلى أي حد يمكن لهذه المصادر أن تساعدنا في رسم صورة للحياة العامة بها ؟

- مدينة مليانة من خلال الكتابات الجغرافية:

بعد التفحص الأولي لكتب الجغرافيا والرحلة نجد أن هذه المصادر قد تعرضت لوصف مدينة مليانة خلال العصر الوسيط في إطار الوصف الشامل لبلاد المغرب، خصوصا عند تعداد الطرق الواصلة بين مدن إقليم المغرب الأوسط، أو الطرق الرابطة بين المغرب الأوسط وغيره من الأقاليم، وذلك من الشرق إلى الغرب أو العكس، وكذا من الساحل إلى الداخل، كما ركزت هذه المصادر أثناء التعريف بمدينة مليانة على جوانب مختلفة من مظاهر الحياة بهذه المدينة، لتنتج لنا نصوصا تاريخية مست بشكل مباشر وخاص الجوانب الطبيعية والاقتصادية وحتى الاجتماعية.

1- التعريف والموقع:

اتفقت جميع المصادر الجغرافية على أن مدينة مليانة هي مدينة قديمة يعود بنائها إلى الفترة الرومانية، وقد تم تجديدها في العهد الإسلامي، حيث يقول الحموي في كتابه معجم البلدان: « مليانة: بالكسر ثم السكون، وياء تحتها نقطتان خفيفة، وبعد الألف نون: مدينة في آخر افريقية، بينها وبين تنس أربعة أيام، وهي مدينة رومية قديمة ... جددها زيري بن مناد (أنظر التعليق رقم 1) وأسكنها بلكين (أنظر التعليق رقم 2) » (الحموي، 1977، مج5: 196، وانظر: ابن حوقل، د.ت: 251، الاستبصار، 1985: 171، الإدريسي، 1983: 154، الحميري، 1984: 547، الدمشقي، 1923: 237).

وقد جاءت المصادر الإخبارية لتؤكد بدورها أن الفضل في تجديد هذه المدينة، وإعادة بنائها خلال الفترة الإسلامية يعود إلى الأسرة الصنهاجية، وأميرها

زيري بن مناد الصنهاجي، حيث يذكر ابن الخطيب عند تعريفه لملوك صنهاجة بالمغرب وابتداء ملكهم به، فيقول عن مؤسس هذه الدولة: « وكان زيري أول من ظهر منهم بالمغرب الأوسط ... وهو الذي بنى مدينة أشير، وإليه تنسب وبنى ابنه بلقين بأمره مدينة مليانة ومدينة الجزائر والمدية » (ابن الخطيب، 2003، ج2: 319).

وهو ما نجده في تاريخ ابن خلدون: « ... ثم اختط ابنه بلكين بأمره –يقصد زيري بن مناد- وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف، ومدينة لمدونة (لمدية) ... وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط » (ابن خلدون، 2000، ج6: 204).

يبدو من خلال هذه الكتابات أن مدينة مليانة قد تم تجديدها على عهد زيري بن مناد، وأنها كانت من بين مدن صنهاجة التي تأسست في ظل حكم الفاطميين، إلى أن أصبحت إحدى أهم مدن المغرب الأوسط حسب ابن خلدون، وهو ما سيؤكده الحسن الوزان في فترة لاحقة في قوله: « مدينة كبيرة جدا وقديمة، بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكنانة، لكن العرب حرفوا هذا الاسم، ... والمدينة محاطة بأسوار عالية عتيقة، والصخرة تشرف من جهة على شعب سحيق، ومن جهة أخرى على منحدر يبدأ من أعلى الجبل ويذكر بمدينة نارني القريبة من روما » (الوزان، 1983، ج2: 34- 35).

ما يمكن استنتاجه من خلال ما ورد في كتب الجغرافيا من معلومات عن تأسيس مدينة مليانة، ومقارنتها بما ورد في بقية المصادر الإخبارية المعاصرة، يجعلنا نخرج بنتيجة أولية أن هذه المدينة مدينة قديمة البنيان، وبها بقية من آثار تعود إلى الفترة الرومانية أو فترات سابقة لها، حيث غالبا ما ترد عبارة أولية عند وصف الجغرافيين للمدينة، وأنه قد تم تجديدها خلال العهد الإسلامي من طرف الأمير زيري بن مناد الصنهاجي، وإن لم تسعفنا المصادر الجغرافية عن تحديد تاريخ تجديدها بالضبط، فإننا نجد في المصادر الإخبارية بعض النصوص التي تدل على أن إعادة بناء مدينة مليانة قد تم بعد سنة 336 للهجرة أي بعد انتهاء ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار (أنظر التعليق رقم 3) ضد الدولة الفاطمية.

ففي هذا الصدد يقول ابن خلدون: « ولما كانت فتنة أبي يزيد والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية، كان لزيري بن مناد من منابذة الخوارج أصحاب أبي يزيد والأخذ بأعقابهم وتسريب الحشود إلى مناصريه العبيديين بالقيروان عناء مشهور ... وحين نازل اسمعيل المنصور أبا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيري في قومه ومن انضم إليه من حشود البربر وعظمت نكايته في العدو، وكان الفتح وصحبه المنصور إلى أن انصرف من المغرب ... وعقد له على قومه ... وعقد له على تاهرت وأعمالها، ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر ... ومدينة مليانة » (ابن خلدون، 2000، ج6: 203- 204).

ويبدو أن الأهمية التي اكتسبتها مدينة مليانة خلال العصر الوسيط حتى أنها أضحت إحدى أهم مدن المغرب الأوسط يرجع إلى موقعها الاستراتيجي الهام، حيث غالبا ما كانت تربط بين مدن المغرب الأوسط، والمغرب الأوسط وما جاوره من الأقاليم، حيث ذكرها ابن حوقل في الطريق الرابط بين فاس والمسيلة، وذكرها البكري في الطريق من قلعة أبي طويل إلى تنس، والطريق من تنس إلى أشير، وهو طريق الساحل، كما ذكرها الادريسي في الطريق من تنس إلى المسيلة.

كما أن هذا الموقع على طريق حجيج المغرب أكسبها أهمية إضافية، إذ شكلت محطة استراحة وتزود بالمؤونة بالنسبة للحجاج والرحالة المغاربة الذين يقصدون المشرق خصوصا لأداء فريضة الحج، حيث ذكرها العبدري كإحدى أهم المحطات في رحلته إلى الحج التي بدأها سنة 668 هـ/1289 م، وذلك في قوله: « وكان رحيلنا من تلمسان بعد المقام المطول ... فنكبنا عن طريق المدية يسارا ... ثم وصلنا مليانة ... وهي مدينة مجموعة مختصرة، وليست مع ذلك من أمهات المدن مقصرة أشرفت من كثب على وادي شلف، واستشرفت نسيم طرفها من شرق في روضة جمة الأزهار والطرف، برعت في سفح جبل حما حماها أن يرام ... » (العبدري، 2007: 46- 47).

وذكرها ابن بطوطة بدوره في رحلته إلى الحج، وذلك خلال وصفه لمدن ومحطات الطريق من طنجة إلى الاسكندرية، قائلا: « كان خروجي من طنجة

مسقط رأسي ... عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت اللّه الحرام، ... فوصلت مدينة تلمسان ... وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي ... فوصلت مدينة مليانة ... ثم ارتحلنا ... فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثا » (ابن بطوطة، د.ت، ج1: 30- 31).

من جهة أخرى غالبا ما تنسب الكتابات الجغرافية موقع المدينة إلى مدينة أشير، حيث يقول صاحب كتاب الاستبصار: « قريبة من مدينة أشير » (الاستبصار، 1985: 171)، ويقول عنها الحميري: « مدينة في أحواز أشير من أرض المغرب بين تنس والمسيلة وبقرب نهر شلف » (الحميري، 1984: 547).

ولعل هذه النسبة ترجع إلى أن مدينة مليانة كانت من بناء زيري بن مناد الصنهاجي، وهو الذي بنى قبلها مدينة أشير حتى أنها كانت تنسب إليه، فيقال أشير زيري، وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب الاستبصار: « بناها زيري بن مناد الصنهاجي وتعرف بأشير زيري، كانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة، وإنما بنى زيري سورها وحصّنها وعمرها، فليس في تلك الأقطار أحصن منها » (الاستبصار، 1985: 170).

وهكذا شكلت مدينة مليانة إحدى أهم مدن المغرب الأوسط، وذلك كونها إحدى أهم المحطات في الطرق الرابطة بين المغرب والمشرق، وقد لخص مارمول كربخال موقعها وعرفها على الشكل التالي: « مدينة كبيرة بناها الرومان فوق جبل مرتفع جدا على بعد أربعة عشر فرسخا من شرشال في داخل البلاد، وعلى بعد خمسة عشر فرسخا غربي مدينة الجزائر، جعل بطليموس موقعها عند خمس عشرة درجة وخمسين دقيقة من خطوط الطول، وثمان وعشرين درجة وخمسين دقيقة من خطوط العرض » (كربخال، 1988- 1989، ج2: 359).

أما عن موقعها سياسيا، فنجد في المصادر الجغرافية بعض الإشارات التي تدل على أن المدينة من مدن المغرب الأوسط التي كانت تابعة للسلطة الحمادية، وذلك في قول الادريسي عند وصفه للطريق من تنس إلى المسيلة: « والطريق من مدينة تنس إلى المسيلة من بلاد بني حماد بالغرب الأوسط، تخرج من مدينة تنس

إلى بني وازلفن مرحلة لطيفة ... ومن بني وازلفن إلى الخضراء مرحلة، وهي مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة ... ومن الخضراء إلى مدينة مليانة مرحلة ... » (الإدريسي، 1983: 154)، ويصفها القزويني على أنها من أعمال بجاية (القزويني، 1984: 273).

نستنتج من خلال ما سبق من نصوص أن مدينة مليانة أصبحت تابعة للدولة الحمادية (405- 547 هـ / 1014- 1153 م) على إثر تأسيسها على يد حماد بن بلكين الصنهاجي، بعدما كانت تابعة في فترة سابقة للدولة الصنهاجية التي خلفت الفاطميين في حكم المغرب، إلا أننا لا نجد أي معلومات في كتب الجغرافيا والرحلة عن المدينة في الفترتين المرابطية والموحدية، ليضعها الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر الهجري / 16 م ضمن المدن التابعة لمملكة تلمسان حسب التقسيم الذي وضعه لبلاد المغرب، والتي يسميها بلاد البربر تقليدا للرومان، ويحددها من تخوم مصر شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا، ليقسمها هي الأخرى إلى أربعة ممالك: مملكة مراكش، مملكة فاس، مملكة تلمسان، ومملكة تونس، ثم إن مملكة تلمسان تنقسم إلى: الجبال، تنس، الجزائر حيث يضع مليانة ضمن إقليم الجزائر (الوزان، 1983: 15- 16).

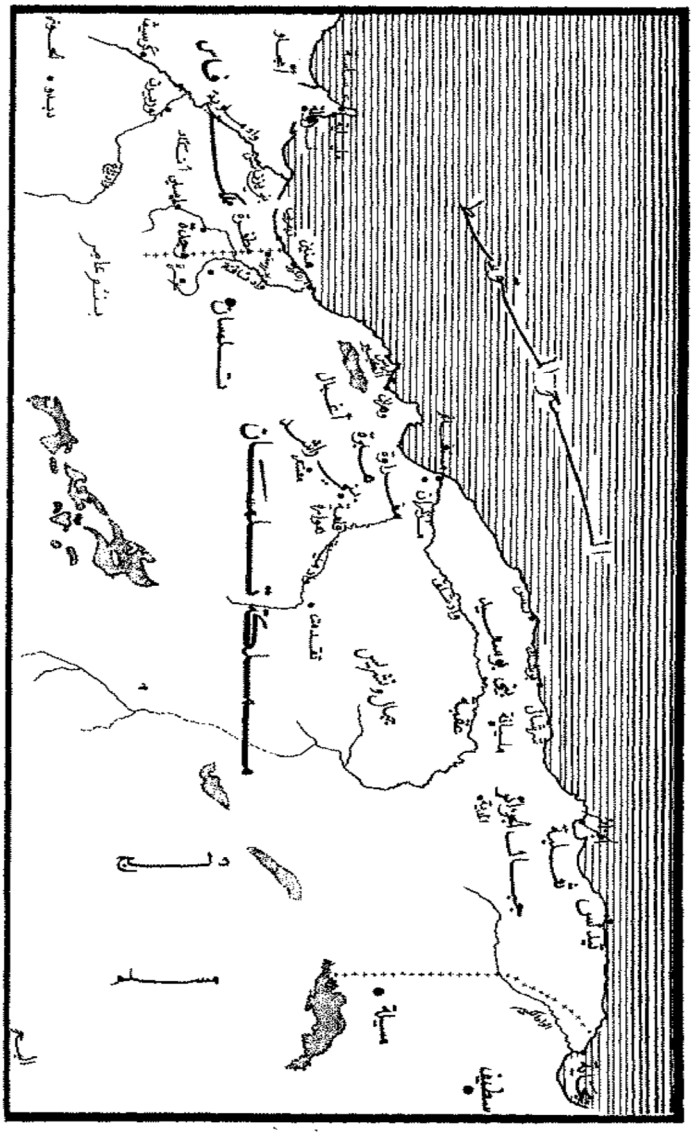

خريطة تمثل موقع مدينة مليانة
ضمن مملكة تلمسان خلال القرن العاشر الهجري
الحسن الوزان، وصف افريقيا

وهذا يعني أنها خضعت للدولة الزيانية، كما خضعت لحكم المرينيين إلى أن استولى عليها الأتراك نهاية العصور الوسطى، وهو ما يشير إليه مارمول كربخال في قوله: « وقد عرفت مليانة عندما ضعف حكم المرينيين عهدا من الحرية، حيث استطاعت أن تدافع عن نفسها ضد هؤلاء الملوك ... أما بعد سقوط تلمسان بيد الأتراك، فإن قائدهم بربروس قد استولى على مليانة وهي إلى يومنا هذا بيد الأتراك » (كربخال، 1988- 1989، ج2: 360).

ومن هنا نجد أن مدينة مليانة خلال العصر الوسيط، وباعتبارها أحد أهم مدن المغرب الأوسط، قد كانت من الناحية السياسية تابعة لعدد من الإمارات والدول التي تأسست بالمنطقة خلال هذه الفترة.

2- الجانب الاقتصادي:

نظرا لاهتمامات الجغرافيين والرحالة التي اتجهت نحو الجوانب الطبيعية والاقتصادية، والنشاطات المختلفة للسكان، فإننا نجد الأوصاف التي وضعتها هذه المصادر لمدينة مليانة، تكاد تتكب على الجانب الاقتصادي عموما، وعلى الزراعة ومصادر المياه بوجه خاص، حيث غالبا ما تشير النصوص الجغرافية المدروسة إلى أن مدينة مليانة هي مدينة زراعية خصبة، وهذا بفضل توفر مصادر المياه وتنوعها من أودية وعيون وينابيع.

أ- الزراعة: اتفقت جميع كتب الجغرافيا والرحلة على أن مدينة مليانة خلال العصر الوسيط كانت مدينة فلاحية بالدرجة الأولى، وهذا راجع إلى خصوبة الأراضي الفلاحية التابعة لها، حيث غالبا ما تصفها هذه المصادر بالبلدة الخصيبة (العبدري، 2007: 47)، وعلى أنها حسنة البقعة (الادريسي، 1983: 154)، كثيرة الخيرات، وافرة الغلات، مشهورة بالحسن والطيب وكثرة الأشجار وتدفق المياه (القزويني، 1984: 273).

ثم إن غنى مدينة مليانة من الناحية الزراعية، يعود خاصة إلى وفرة المياه وتنوع مصادرها من أنهار وأودية وينابيع وآبار، وهو ما أكدته المصادر الجغرافية، حيث لم يخل وصف لهذه المدينة دون الإشارة إلى مصادر المياه التي تسقي أراضيها

الفلاحية، وهو ما نجده عند ياقوت الحموي في قوله: « فيها آبار وأنهار تطحن عليها الرحى » (الحموي، 1977، مج5: 196، الدمشقي، 1923: 237)، ويؤكده الحميري بقوله: « وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء، ... وبقعتها كريمة ومزارعها خصيبة، ونهرها يسقي أكثر مزارعها وجناتها، ولها أرحاء على نهرها، ولأقاليمها حظ من سقي شلف » (الحميري، 1984: 547).

يظهر من نص الحميري أنه إضافة إلى مصادر المياه المحلية الخاصة بمدينة مليانة، فإنها كانت تستفيد كذلك من نهر شلف (أنظر التعليق رقم 4) في سقي أراضيها، وهو ما أشارت إليه بقية كتب الجغرافيا، مثل قول ابن حوقل: « لها أرحية على نهرها، وسقي كثير من واديها، ولها حظ من نهر شلف » (ابن حوقل، د.ت: 90)، وقول صاحب كتاب الاستبصار: « ومدينة مليانة مشرفة على فحوص (أنظر التعليق رقم 5) واسعة ... ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور » (الاستبصار، 1985: 171).

وعلى الرغم مما أشارت إليه كتب الجغرافيا من وفرة المياه وتنوع مصادرها بمدينة مليانة، لكن الملاحظ أن هذه المصادر قد بخلت علينا بتوضيح الكيفية التي من خلالها يتم استغلال هذه المياه، والطريقة المستخدمة لسقي الأراضي الزراعية، هل كانت عن طريق قنوات مغلقة أو سواقي مكشوفة ؟ بالإضافة إلى استغلال جريان الأودية والأنهار في طحن الحبوب، والكيفية التي تتم بها هذه العملية، واكتفت بالإشارة إلى وجود طواحين ماء على الأنهار التي تشق هذه المدينة.

وبالتالي فإن الكتابات الجغرافية اكتفت بتعداد مصادر المياه التي تستفيد منها الزراعة، وانتقلت مباشرة إلى تعداد المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها مدينة مليانة.

تدل المعلومات التي أوردتها كتب الجغرافيا على أن بلاد المغرب الأوسط عموما هي بلاد ذات إنتاج زراعي وافر، تتنوع فيها المحاصيل الزراعية من منطقة إلى أخرى، حتى أن كل مدينة من مدنه بالإضافة إلى اشتهارها بإنتاج مادة معينة، تقوم بإنتاج مواد زراعية مختلفة، ولعل مدينة مليانة لا تخرج عن هذا الإطار،

فهي إضافة إلى أنها كثيرة البساتين والمزارع، تتنوع فيها المحاصيل إلا أنها اشتهرت حسب ما أوضحته المصادر الجغرافية بإنتاج الحبوب والفواكه.

نظرا لتنوع مصادر المياه وكثرتها بمدينة مليانة والأقاليم التابعة لها، وكذا خصوبة الأراضي الفلاحية واتساعها، تأتي الحبوب على رأس المنتوج الفلاحي لمدينة مليانة - وإن لم تشر المصادر الجغرافية إلى ذلك مباشرة – حيث تم اتخاذ الأرحاء على الأنهار والأودية، وهو ما يورده البكري في قوله: « هي ذات أشجار وأنهار، تطحن عليها الأرحاء » (البكري، 2003، ج2: 241).

كما يشير صاحب كتاب الاستبصار إلى جبل زكار الذي تستند عليه المدينة، ويوضح كيف اتخذت عليه الأرحاء لغزارة مياهه، وذلك في قوله: « وينبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها » (الاستبصار، 1985: 171).

ويبدو أن هذا الجبل إضافة إلى اتخاذ الرحى عليه، كان يزرع وينتج مجموعة من الأشجار، وهو ما ذكره القزويني في قوله: « حدثني الفقيه أبو الربيع سليمان الملتاني أن جبل زكار مطل على المدينة، وطول الجبل أكثر من فرسخ، ومياه المدينة تتدفق من سفحه، وهذا الجبل لا يزال أخضر صيفا وشتاء، وأعلى الجبل مسطح يزرع » (القزويني، 1984: 273)، كما أشار إلى ذلك أيضا الحسن الوزان قائلا: « وهذا الجبل مليء بالعيون ومكسو بأشجار الجوز، حتى إن الجوز هنالك لا يشترى ولا يقتطف » (الوزان، 1983، ج2: 35، كربخال، 1988-1989، ج2: 359- 360).

وإضافة إلى الحبوب تنتج مدينة مليانة وأقاليمها وفحوصها جميع الفواكه، وهو ما أشارت إليه أغلب كتب الجغرافيا والرحلة، مثل كتاب الاستبصار في قول صاحبه: « ولمدينة مليانة مياه سائحة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه » (الاستبصار، 1985: 171)، وهنا ينفرد مارمول كربخال بإيراد منتوجي الليمون والبرتقال ضمن الإنتاج الزراعي لمدينة مليانة، فيقول: « وتحيط بالمدينة بساتين شاسعة بها أحسن ما في بلاد البربر من أشجار الليمون، تنمو بها أيضا أشجار

البرتقال التي تعطي ثمارا جيدة تحمل لبيعها في تنس وغيرها من المدن » (كربخال، 1988- 1989، ج2: 360).

وباعتبار مدينة مليانة من المدن الزراعية بالمغرب الأوسط، فإن كثرة الخصب والمزارع التي تحيط بها، لدليل واضح على وفرة الفواكه على أنواعها، ومحاصيل أخرى لم تذكرها هذه الكتابات، حيث اكتفت بالإشارة إلى كثرة البساتين بمليانة دون توضيح لنوعية منتجاتها.

ب- الحرف: على الرغم مما أوضحته كتب الجغرافيا من غنى هذه المدينة من الناحية الزراعية إلا أنها تبخل علينا بإيراد أي معلومات تتعلق بالجانب الحرفي أو التجاري، فالأكيد أن الكثير من موارد هذه المدينة تستعمل كمادة أولية في العديد من الحرف، حيث لا تسعفنا في هذا المجال من مجالات الاقتصاد كتب الجغرافيا المتقدمة بأية معلومات، إلا أننا نجد في نصوص الحسن الوزان ما يشير إلى بعض الحرف التي امتهنها سكان مدينة مليانة، وذلك في قوله: « يكاد يكون سكانها كلهم صناعا، نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني من خشب في غاية الحسن، ويشتغل كثير منهم كذلك بالفلاحة » (الوزان، 1983، ج2: 35).

وهي نفس الحرف التي أوردها مارمول كربخال خلال وصفه لسكان مدينة مليانة قائلا: « ومعظمهم من صناع الجوخ (أنظر التعليق رقم 6) والسروج على طريقة المغاربة، ومن سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها » (كربخال، 1988- 1989، ج2: 360).

ج- التجارة: أظهرت النصوص الجغرافية والرحلية كيف أن مدينة مليانة تقع في طريق الرحلة والتجارة من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، حيث شكلت خلال العصر الوسيط إحدى المحطات الهامة التي تستوقف الرحالة خصوصا عند أداء فريضة الحج، والأكيد أن المدينة ستستفيد تجاريا من هذا النوع من الرحلات، حيث غالبا ما يتوقف عندها الحجاج للتزود بالمؤن من أسواقها، كما تستوقف التجار لأنها تقع على الطرق التجارية الداخلية الخاصة بالمغرب الأوسط.

وهو ما تؤكده كتب المسالك والممالك، مثل كتابات ابن حوقل والبكري والإدريسي التي وضعت مدينة مليانة كمرحلة من مراحل أهم الطرق الرابطة بين مدن المغرب الأوسط، وبينه وبين بقية أقاليم المغرب.

ثم ما يمكن استنتاجه عن التجارة والطرق التجارية بهذه البلاد، وذلك بالرجوع إلى الكتابات الجغرافية، أن هذه المدينة باعتبارها جزءا من إقليم المغرب الأوسط، تعد ممرا يصل ما بين افريقية والمغرب الأقصى، وفي نفس الوقت يصل المناطق الشرقية للمغرب الأوسط مثل قسنطينة وبجاية بالمناطق الغربية مثل تاهرت وتلمسان، وهنا تعتبر كتب المسالك والممالك هي المعول عليها في هذا الجانب.

يشير ابن حوقل - ولو بطريقة غير مباشرة - إلى أن مدينة مليانة هي منطقة عبور إلى العديد من الأقاليم والبلدان، حيث قدم لنا هذا الكاتب أوصافا موسعة للطرق والمسالك التي كانت تربط بين بلاد المغرب، كما يحدد المراحل التي تربط بين المدن، ومن بين هذه الطرق يذكر الطريق من فاس إلى المسيلة (أنظر التعليق رقم 7)، وهي الطريق التي تقع ضمنها مدينة مليانة.

يحدد البكري هو الآخر مجموعة من الطرق التي تربط مدينة مليانة بغيرها من مدن المغرب الأوسط، وهي: الطريق من قلعة أبي طويل إلى مدينة تنس (البكري، 2003، ج2: 239- 241)، الطريق من تنس إلى أشير (البكري، 2003، ج2: 251)، الطريق من فاس إلى القيروان (البكري، 2003، ج2: 326- 330)، بينما يتطرق الإدريسي كذلك إلى هذه الطرق والمسافات الفاصلة بينها، مثل الطريق من تنس إلى المسيلة (الإدريسي، 1983: 154- 155)، الطريق من وهران إلى مليانة: « فمن وهران إلى مدينة تنس مجريان، وهي من الأميال مئتا ميل وأربعة أميال، ... ومن مدينة تنس إلى مدينة مليانة في البر مرحلتان، وبين مليانة وتاهرت ثلاث مراحل » (الإدريسي، 1983: 158).

والملاحظ هنا أن مدينة مليانة قد شكلت مرحلة من مراحل الطرق الرابطة بين أقاليم المغرب الأوسط وما جاوره من البلدان، شرقا وغربا، كما كانت عبارة عن ممر يصل المدن الساحلية بمناطق الهضاب أو طريق الهضاب ومنه إلى الطريق الصحراوي.

وعلى الرغم من أهمية موقع المدينة حسبما أوضحته النصوص الجغرافية والرحلية، إلا أنها تبخل علينا بالتفاصيل الخاصة بأنواع السلع المتبادلة بأسواق المدينة، وعن كيفية تنظيمها، واكتفت بالإشارة إلى أن بمدينة مليانة سوق جامعة وهو ما ذكره البكري (البكـري، 2003، ج2: 251)، وأن أسعارها رخيصة حسبما أشار إليه صاحب كتاب الاستبصار (الاستبصار، 1985: 171).

وفي الأخير ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة النصوص التي أوردتها كتب الجغرافيا والرحلة، فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي لمدينة مليانة خلال العصر الوسيط، أن هذه المدينة تعد مدينة زراعية من الدرجة الأولى، وذلك باعتمادها على الأقاليم والفحوص التي تنتج محاصيل زراعية متنوعة، لعل أهمها الحبوب والفواكه، غير أن ما يوجد بها من معلومات حول الحرف التي اشتهرت بها هذه المدينة أو تجارتها لا يفي بالحاجة، وهو ما يضطر الباحث إلى إحداث بعض الإسقاطات عن ما عرف به إقليم المغرب الأوسط عموما باعتبار مليانة تقع ضمن هذه البلاد وفي حدودها.

3- الجانب الاجتماعي:

في هذا الجانب تبخل علينا المصادر الجغرافية بأية تفاصيل يمكن استغلالها في كتابة تاريخ هذه المدينة خلال العصر الوسيط، وتكتفي بإشارات عابرة على أن مدينة مليانة كانت مدينة عامرة وحولها قبائل من البربر، حيث يقول البكري في هذا الصدد: « ... وهي عامرة آهلة ... » (البكـري، 2003، ج2: 251)، ويوافقه في ذلك صاحب الاستبصار في قوله: « ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ... وحولها قبائل كثيرة من البربر » (الاستبصار، 1985: 171)، وهو نفس ما ذهب إليه الحميري قائلا: « وهي عامرة ومشرفة على جميع ذلك الفحص الذي فيه بنو واريفن وغيرهم، وهي عامرة آهلة » (الحميري، 1984: 547).

كما يشير مارمول كربخال في نهاية العصر الوسيط إلى أن معظم سكان المدينة كانوا من زواوة، وأنهم كانوا على خلاف مع القبائل العربية بالمنطقة التي

كانت تعتدي على المدينة، وذلك في قوله: « وقد عرفت مليانة عندما ضعف حكم المرينيين عهدا من الحرية، حيث استطاعت أن تدافع عن نفسها ضد هؤلاء الملوك من جهة، وضد العرب من جهة أخرى، ذلك لأن معظم سكانها من زواوة ولهم عدد من الملاجيء في الجبال » (كربخال، 1988- 1989، ج2: 360).

من جهة أخرى نجد في بعض النصوص الجغرافية وكتب الرحلة ما يشير إلى مرافق المدينة التي يستفيد منها السكان، مثل الجامع والحمامات، حيث يقول العبدري في هذا الصدد: « وبها جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوضه من حلي عطلا وادي له من حكمته خطلا، وأبدل هالته السهى من تلك الأقمار، وكساه بعد الحبر الأطمار، وأحل حلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار ... وما بقي بها من له بالعلم أدنى عناية » (العبدري، 2007: 47- 48).

وهو ما يشير إليه كذلك القزويني في قوله: « وبقرب المدينة حمامات لا يوقد عليها ولا يستقى ماؤها، بنيت على عين حارة عذبة الماء يستحم بها من شاء » (القزويني، 1984: 273).

وبالتالي تعد كتب الجغرافيا والرحلة فقيرة من هذه الناحية على العموم، ولعل هذا راجع إلى اهتمام أصحابها بدراسة الأقاليم من الناحية الطبيعية والجغرافية والاقتصادية.

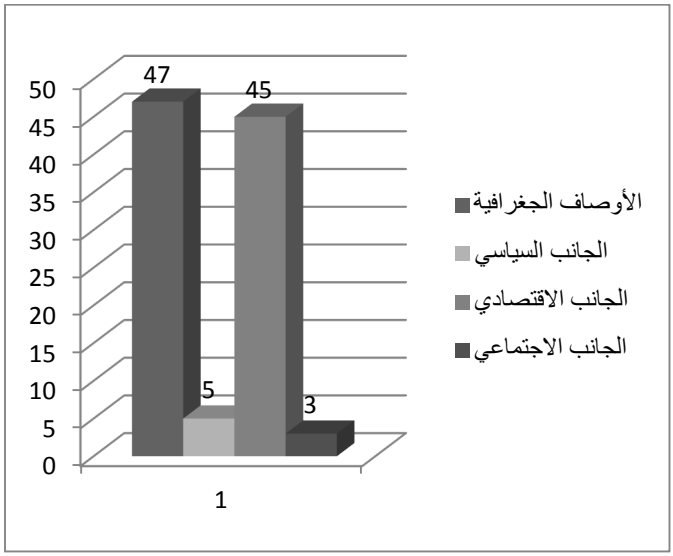

أعمدة بيانية تمثل النسب المئوية لمختلف صور الحياة
التي قدمتها كتب الجغرافيا والرحلة
لمدينة مليانة خلال العصر الوسيط

وفي الأخير فإن النتائج المتوصل إليها بعد استخراج ودراسة النصوص التي أفردتها المصادر الجغرافية وكتب الرحلة لمدينة مليانة خلال العصر الوسيط، وذلك منذ إعادة بنائها على يد زيري بن مناد الصنهاجي وإلى غاية منتصف القرن العاشر الهجري، نجد أن هذه النصوص متنوعة وغنية بالمادة التاريخية التي تمس مباشرة الجوانب العمرانية والطبيعية والجغرافية والاقتصادية لمدينة مليانة، فهي تعالج هذه المواضيع بشيء من الدقة، وانفردت بإعطاء معلومات لا نجدها في بقية المصادر.

1: هو الأمير زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، وزيري أول من ملك من بيتهم، وهو الذي بنى مدينة أشير، وحصنها في أيام خروج أبي يزيد مخلد الخارجي، لما خرج عن القائم بن المهدي وعلى ولده المنصور اسماعيل، وملكها، وأعطاه المنصور تاهرت وأعمالها، وكانت بينه وبين جعفر الأندلسي ضغائن وأحقاد أفضت إلى الحرب، فلما تصافا انجلى المصاف عن قتل زيري، وذلك سنة

360 هـ، وذكر أنه كبا به فرسه، فسقط على الأرض فقتل، وكانت مدة ملكه 26 سنة، ابن خلكان، 1977، مج2: 343.

2: هو أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، ويسمى أيضا يوسف، لكن بلكين أشهر، هو الذي استخلفه المعز بن المنصور العبيدي على افريقية عند توجهه إلى الديار المصرية، وكان استخلافه سنة إحدى وستين وثلثمائة، وأمر الناس بالسمع والطاعة له، وسلم إليه البلاد، وخرجت العمال وجباة الأموال باسمه، ... ولم يزل حسن السيرة، تام النظر في مصالح دولته ورعيته إلى أن توفي سنة ثلاث وسبعين، ، ابن خلكان، 1977، مج1: 286.

3: المعروف أن ثورة صاحب الحمار تعد من أكبر الثورات التي قامت بالمغرب ضد الحكم الفاطمي، وقد انتهت سنة 336 هـ بقتل صاحبها، بعدما قبض عليه المنصور الفاطمي وقتله في محرم من سنة 336 للهجرة، لمزيد من الاطلاع انظر: ابن عذاري المراكشي، 1983، ج1: 220.

4: نهر كبير ينبع في جبال ونشريس وينحدر عبر سهول قفرة في تخوم مملكتي تلمسان وتنس، ليتابع سيره إلى أن يصب في البحر المتوسط، ويصطاد في مصب هذا النهر كمية وافرة من السمك الجيد، منه كبير وصغير، الوزان، 1983، ج2: 251.

5: الفحص: شدة الطلب خلال كل شيء، فحص عنه فحصا: بحث، ونقول: فحصت عن فلان وفحصت عن أمره لأعلم كنه حاله، والدجاجة تفحص برجليها وجناحيها في التراب تتخذ لنفسها أفحوصة تبيض أو تجثم فيها، وفحص المطر التراب يفحصه: قلبه ونحى بعضه عن بعض فجعله كالأفحوص، وفي حديث كعب: إن الله بارك في الشام وخص بالتقديس من فحص الأردن إلى رفح، الأردن: النهر المعروف تحت طبرية، وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه، والفحص: ما استوى من الأرض، والجمع فحوص، ابن منظور، د.ت، مج 7: 63- 64.

6: نسيج صفيق من الصوف، المعجم الوسيط، 2004: 145.

7: لمزيد من الاطلاع على هذه الشبكة من الطرق، انظر: ابن حوقل، د.ت: 85- 90.

- قائمة المصادر والمراجع:

- ابن بطوطة أبو عبد الله بن عبد الله، (د.ت)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، د.م، مؤسسة الرسالة.

- ابن حوقل أبو القاسم، (د.ت)، **كتاب صورة الأرض**، الطبعة 02، بيروت، دار صادر.

- ابن الخطيب لسان الدين، (2003)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تحقيق: سيد كسروي حسن، الطبعة 1 ، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

- ابن خلدون عبد الرحمن، (2000)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (1977)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

- ابن عذاري المراكشي، (1983)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الطبعة 3، بيروت، لبنان، دار الثقافة.

- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (د.ت)، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر.

- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، (2003)، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

- الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (1977)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر.

- الحميري محمد بن عبد المنعم، (1984)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، بيروت، مكتبة لبنان.

- الدمشقي شمس الدين أبو عبد الله محمد أبو طالب، (1923)، **كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، د.م.

- العبدري محمد البلنسي، (2007)، **الرحلة المغربية**، الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات.

- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** للإدريسي أبي عبد الله الشريف، (1983)، تحقيق: اسماعيل العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، (1984)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.

- كربخال مارمول، (1988- 1989)، **افريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، وآخرون، الرباط، دار نشر المعرفة.

- مؤلف مجهول، (1985)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية.

- **المعجم الوسيط**، (2004)، الطبعة 04، مصر، مكتبة الشروق الدولية.

- الوزان الحسن بن محمد، (1983)، **وصف افريقيا**، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة 02، بيروت، دار الغرب الإسلامي.